

مقدمة

في الشرق من المتوسط كانت هناك قوة إسلامية نافذة وهي الدولة العثمانية التي زاد نشاطها البحري وتصادمت مع القوى المسيحية خلال تقديمها الدعم لمسلمي الأندلس الفارين من جحيم القتل والتشريد والإكراه الذي تقوم به محاكم التفتيش، وفي هذه الظروف والمحن ظهر الإخوة "بربروس" الذين ذاع صيتهم بين المسلمين في غرب المتوسط ومساعدتهم للأندلسيين وخاصة لما استقروا في جزيرة جربة التونسية، ثم منحهم السلطان "محمد الحفصي" ميناء حلق الوادي مقابل خمس الغنائم والذي اتخذوا منه مركزا لغزو السفن والمدن المسيحية.

01- أصل الإخوة بربروس: مما يذكر عنهم أنهم من صحراء الأناضول، انتقل أبوهم إلى جزيرة مديلي أو مديلي ضمن الجيش العثماني واستقر فيها، وقد فتح هذه الجزيرة محمد الفاتح سنة 866 هـ/ 1462م،¹ وترك فيها حامية من جنوده منهم واحدا اسمه يعقوب، الذي تزوج بإحدى الذميات فأنجبت له أربعة أولاد وهم: إسحاق، عروج، خير الدين وإلياس.²

02- ظهور الإخوة بربروس: اشتغل الأخوان خير الدين وعروج أول أمرهما بالتجارة البحرية، وفي إحدى سفرات عروج إلى طرابلس الشام اعترضت سفينته سفن تابعة لجنود جزيرة رودس واستولت عليها، وأسرت عروج واستشهد أخاه إلياس³، فكان هذا الحادث تحولا في حياة عروج، وبعدما تخلص من الأسر اتجه إلى القرصنة والانتقام من سفن رودس النصرانية، ثم أخذ أمره يقوى شيئا فشيئا حتى وصل جزيرة جربة⁴، وجاء خير الدين أيضا إلى جزيرة جربة حيث التقى بأخيه عروج، بعد أن قدما هدية إلى سلطانها أبي عبد الله، وواصل الإخوة نشاطهم البحري، واكتسبوا شهرة كبيرة في حوض البحر الأبيض المتوسط؛ بفضل الشجاعة التي كانوا يتميزون بها، والتي أظهروها في نشاطهم ضد السواحل

¹ - محمد العروسي المطوي: السلطنة الحفصية تاريخها السياسي ودورها في المغرب الإسلامي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1986، ص 671.

² - مؤلف مجهول: سيرة المجاهد خير الدين بربروس في الجزائر، تح وتق وتع: عبد الله حمادي، دار القصة للنشر، الجزائر، 2009، ص 48.

³ - مؤلف مجهول: مذكرات خير الدين بربروس، المصدر السابق، ص 23.

⁴ - محمد دراج: المرجع السابق، ص 182، 183.

الإيطالية خاصة، فقد تمكنوا من الاستيلاء على ثلاث سفن محملة بالغنائم، بعد رحلة دامت عشرين يوما، ثم عادوا بها إلى تونس، ووزعوا جزءا هاما منها على فقراء المدينة.⁵

03- استقرار عروج وخير الدين في تونس: بعد اتصال الأخوين عروج وخير الدين بالسلطان الحفصي أبو عبد الله سنة 1504 مباح لهما الإقامة في أي ميناء يريانه مناسبا لهما، واتفق معهما أن يكون له الخمس مما يستوليان عليه من غنائم النصرى، وكان السلطان الحفصي يتقرب منهما زيادة على ذلك أن يحدثا هيبة لدولته وحماية سواحله نظرا لما يتمتع به الأخوان من كفاءة حربية، فكانا يقيمان الشتاء في تونس ويخرجان بداية الربيع في جولتهما البحرية، كما كانت تدفع السلطان الحفصي رغبة استعادة مت افتكه الإسبان من أراضيه في الجهة الغربية.⁶

إذا كانت موانئ السلطنة الحفصية هي التي تدعمت في أحواضها القوة البحرية للأخوين عروج وخير الدين، وقد شجعتهم انتصاراتهما البحرية على التقدم والتوغل في عرض البحار إلى السواحل الإسبانية، ولهذا استطاع عروج وخير الدين أن يقدموا على تخليص الموانئ الجزائرية من الاحتلال الإسباني وأن ينقذا الكثير من الثوار المسلمين بالأندلس من الأسر والقهر ويأتوا بهم إلى شمال إفريقيا.⁷

04- جهود الإخوة بربروس في تحرير المدن الساحلية:

أ- المحاولة الأولى لتحرير مدينة بجاية 1512م: لجأ الإخوة بربروس إلى سواحل بجاية بعد أن أجبرتهم الرياح على ذلك، لذلك تم إرسال السفن الإسبانية للقضاء عليهم، فرأى الإخوة أن الاشتباك مع الإسبان قرب السواحل فيه خطورة وقرروا الابتعاد عنها، فظن الإسبان أن العثمانيين يريدون الفرار فطاردهم وأدركوهم بعيدا عن الساحل، عندها أعطى الإخوة الأوامر بشن هجوم معاكس على السفن الإسبانية استولوا خلالها على ثلاث سفن ولاذت البقية بالفرار واحتمت بميناء بجاية، فشرعت الحامية

⁵- مجهول: غزوات عروج وخير الدين، تح وتق وتع: نور الدين عبد القادر، المطبعة الفعلية، الجزائر، 1934، ص15.

⁶- أحمد بن أبي الضياف: إتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان، ط2، المطبعة الأساسية بن عروس، تونس، 1977، ج 02، ص10.

⁷- محمد العروسي المطوي: المرجع السابق، ص675.

الإسبانية في قصف عروج ومن معه مما أدى إلى سقوط ستين شهيدا إضافة إلى عدد كبير من الجرحى، لما رأى خير الدين ذلك أصدر أوامره بالانسحاب إلى تونس.⁸

ب- تحرير جيجل: بدأ الإخوة بربروس من جيجل التي حرروها من الجنويين عام 1514م التي كانوا يحتلوها منذ سنة 1260م وجعلوا منها قاعدة لأسطولهم واستقروا فيها، وأصبحت أول قاعدة لهم، وكان ظهور الإخوة هناك بالاستيلاء على سفينة صقلية ممتلئة بالقمح.⁹

ج- المحاولة الثانية لتحرير بجاية 1514م: كان الاخوان عروج وخير الدين يدركان أن تحرير بجاية سوف يؤدي الى انتهاء الاحتلال الإسباني للشرق الجزائري كله وقطع خطوط مواصلات القوات الإسبانية بين طرفيها الشرقي والغربي، ويؤمن السواحل الجزائرية الشرقية والتونسية من القراصنة ووصل وفد من أعيان وأشرف بجاية يحملون اليهما كتابا يطلبون فيه تخليصهم من ظلم الإسبان، وهكذا قام الاخوان بتجهيز اثني عشرة سفينة حربية على متنها الفين جنديا من البحارة يساندتهم عشرين ألف من رجال القبائل، وبدأ الهجوم على القلعة الخارجية التي استولوا عليها بعد أربعة أيام وقضوا على جميع أفراد الحامية الإسبانية وأسروا 500 منهم، بعد ذلك حاصروا القلعة الداخلية وقصفوها مدة عشرين يوما الى أن نفذ منهم البارود واستعانوا بسلطان تونس الذي خذلهم وتجاهل طلبهم¹⁰، إضافة إلى وصول 100 قطعة بحرية الى سواحل بجاية على متنها حوالي 10000 جنديا إسبانيا لذا قرر عروج رفع الحصار وسحب قواته إلى جيجل.¹¹

د- المحاولة الأولى لتحرير قلعة البنيون: عندما بلغ أهالي مدينة الجزائر نبأ موت فرديناند سنة 1516م نقضوا المعاهدة المفروضة عليهم وامتنعوا عن دفع الجزية، وأرسلوا إلى عروج بجيجل يستدعونه لطردهم الإسبان رغم معارضة سالم التومي، الذي لم يتردد في قبول الدعوة حيث أعد 16 سفينة وأرسلها مع نصف جنوده بحرا وأما النصف المتبقي فقد توجه برا إلى مدينة الجزائر، وفي الطريق انضم اليه 5000

⁸ - محمد خير فارس: تاريخ الجزائر الحديث، ط01، مكتبة دار الشرق، بيروت، 1969، ص24.

⁹ - جون. ب. وولف: المصدر السابق، ص30.

¹⁰ - محمد العروسي المطوي: المرجع السابق، ص678.

¹¹ - أحمد بن أبي الضياف: المصدر السابق، ص11.

من رجال القبائل وحينما وصل إلى مدينة الجزائر توجه إلى قلعة شرشال التي تبعد عن المدينة بحوالي 150 كلم ففتحها وترك بها حامية ثم عاد إلى الجزائر فدخلها.¹²

هـ- القضاء على تمرد الشيخ سالم التومي: كان سالم التومي قد عارض استدعاء الإخوة بربروس لتحرير مدينة الجزائر لكنه اضطر إلى القبول تحت ضغط الأعيان عليه ، لذا قاد أول حركة تمرد ضد الوجود العثماني لأن ذلك يفقده رئاسة مدينة الجزائر فسارع إلى استغلال الفشل في الاستلاء على حصن البنيون ومعاملة الجنود الأتراك للجزائريين مما أثار موجة عارمة من التدمير والسخط، فشرع هو ومن والاه من الأعيان الساخطين في إثارة العامة على العثمانيين، عندها اتخذ عروج موقفا سريعا وأمر بإعدامه بعده بايعه أعيان المدينة وعلمائها سلطانا على الجزائر.¹³

و- الحملة الإسبانية الأولى لاستعادة مدينة الجزائر 1516م: أزعج الإسبان مبايعة عروج سلطانا على الجزائر فقرروا توجيه ضربة حاسمة تستأصل الخطر العثماني قبل أن يستفحل أمره، فسارع يحيى بن سالم التومي إلى الإسبان بوهران طالبا منهم التدخل لطرد الأتراك والانتقام لأبيه منهم، فلم يتأخروا وسارعوا في الاستعداد لغزو الجزائر بعد الاتفاق مع أمير تنس والتحالف مع قبيلة الثعالبة في سهل متيجة يساندتهم الإسبان المتحصنون في قلعة البنيون، كما وجه حاكم تلمسان دعوة رسمية إلى الملك الإسباني يلتمس منه العون، فأرسلت 35 سفينة تحمل 15000 جنديا وعندما وصلت هذه القوات تصدى لها العثمانيون والأندلسيون تساندتهم بعض القبائل وأهالي المدينة، فاضطر الإسبان إلى الانسحاب بعد أن خلفوا وراءهم آلاف القتلى.¹⁴

ز- رد الحملة الإسبانية الثانية على الجزائر: كانت في نفس السنة (1516)، خلفت 2700 أسيرا وعددا لا يحصى من القتلى.

ك- تحرير قلعة تنس 1518م: عندما وصل خير الدين إلى سواحل تنس لجأ الإسبان إلى القلعة متحصنين بها فاستولى على المدينة وضرب حصانا على القلعة.

¹² - محمد دراج: المرجع السابق، ص 261.

¹³ - كورين شوفالييه: المصدر السابق، ص 30.

¹⁴ - نجيب دكاني: المرجع السابق، ص 54.

ل- تحرير تلمسان: لم يستقر المقام بالأخوين في تنس حتى جاءهما وفد من مدينة تلمسان يطلب من عروج المساعدة للقضاء على السلطان أبي حمو الثالث الذي استولى على عرش ابن أخيه أبي زيان الذي تحالف مع الإسبان وأثقل عليهم بالضرائب، فلبى النداء وسلك الطريق الواقعة شرق وهران، وعندما وصل إلى قلعة بني راشد وضع عليها حامية تضم 600 مقاتلا تحت قيادة أخيه إسحاق واعتزضت طريقه قوات أبي حمو موسى الثالث التي انهزمت أمامه وفر إلى فاس ومنها إلى الحامية الإسبانية بوهران عندها دخل تلمسان ونصب أبي زيان أميرا عليها والذي أعلن تمرده مما أجبره على قتله وأعلن نفسه حاكما على تلمسان.

جمع أبو حمو أشتات قواته ودعمته الحامية الإسبانية بوهران بقوة عسكرية بلغ عددها عشرة آلاف (10000) جنديا وساروا نحو قلعة بني راشد وتمكنوا منها وقتلوا الحامية التركية بها، وحاصروا تلمسان مدة ستة أشهر سقطت خلالها في يد الإسبان، فر عروج ولاحقه الإسبان ودارت معركة بينهم بالوادي المالح بنواحي عين تموشنت استشهد خلالها عروج في شهر ماي 1518م.¹⁵

¹⁵ - شوقي عطا الله الجمل: المرجع السابق، ص 96، 97.